سورة العنكبوت

هى مكية إلا من أولها إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » فمدنية ، نزلت بعد سورة الروم ، وعدة آيها تسع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل ؛ تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا على الصبر ؛ كما قال : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

(٢) ذكر فى السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده إلى مصر رسولا نبيا ، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا وذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد — وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم فى ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالهما .

(٥) ذكر هناك فى الخاتمة الإشارة إلى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » ، وفى خاتمة هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : « يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون (٤).

شرح المفردات

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن الله الذين صدقوا أى ليظهرن صدقهم ، السبق : الفوت والمراد به الفوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أى قبح حكمهم أنهم يهربون منا .

المعنى الجملى

بعد أن قال فى أواخر السورة السالفة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن والضرب فى الحرب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين — أردف ذلك بتنبيههم إلى أن المؤمنين لا يتبين إيمانهم الحق إلا إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا ممن كانوا بمكة آمنوا فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة لا يقبل منكم إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآيات فكتبوا إليهم ، أنزلت فيكم آية كذا وكذا ؟ فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال مقاتل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» وجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآية .

الإيضاح

(الٓمٓ) تقدم أن قلنا إنه ينطق بالحروف المقطعة فى أوائل السور بأسمائها فيقال : (أَلِفْ . لَامْ . مِيمْ) .

والحكمة فى البداءة بها التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى مايلقى بعدها ، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئا غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه ، فحينا يكون كلاما مفهوما كقول القائل اسمع أو ألق بالك إلىّ ، وحينا يكون فى معنى الكلام المفهوم كقولك ياعلى ، وحينا يكون صوتا غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

فالنبى صلى الله عليه وسلم و إن كان يقظ الجنان فهو إنسان يشغله شأن عن شأن فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفا هى كالمنبهات لايفهم منها معنى، لتكون أتم فى إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولا مفهوما فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتا لامعنى له جزم بأن هناك كلاما آخر سيرد بعد ، فيقبل إليه تمام الإقبال ، ويرهف السمع إلى ماسيأتى :

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة فى أوائلها حرف التهجى بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو الٓمٓ ذلك الكتاب ، الٓمٓصٓ كتاب أنزل إليك ، يٰسٓ والقرآن ، صٓ والقرآن ، قٓ والقرآن ، حٰمٓ تنزيل الكتاب — إلا ثلاث سور كهيعص ، الم أحسب الناس ، الٓمٓ غلبت الروم .

وقد يحصل التنبيه فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، وقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ؟ » ، من قبل أن تقوى الله أمر عظيم ، ومثلها تحريم ما أحل الله .

وقد بدئت هذه السورة بالحروف وليس فيها البدء بالقرآن أو الكتاب من قبل أن فيها ذكر جميع التكاليف ، وهى شاقة على النفس ، فحسن البدء بحروف التنبيه للإيقاظ إلى ما يلقى بعدها :

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى أظن الذين نجوا من أصحابك من أذى المشركين أن نتركهم بغير اختبار ولا امتحان بمجرد قولهم : آمنا بك وصدقناك فيما جئتنا به من عند الله ، كلا لنمتحنهم بشاق التكاليف كالهجرة والجهاد فى سبيل الله وفرض الشهوات ووظائف الطاعات وأنانين المصايب فى الأنفس والأموال والثمرات ، ليمتاز المخلص من المنافق ، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ، ونجازى كلا على حسب مراتب عمله .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

والخلاصة : أيظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا دون أن يبتلوا بالفرائض البدنية والمالية كالهجرة من الأوطان والجهاد فى سبيل الله ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين وإغاثة البائسين والملهوفين .

ثم ذكر ما هو كالتسلية لهم بما نال من قبلهم بالمشاق فقال :

(ولقد فتنا الذين من قبلهم) أى ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضّوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى إسرائيل بفرعون وقومه وأصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه — لا جرم ليميزن أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خَبَّاب بن الأَرَتّ قال : « شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمْشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه ؛ فما يصده ذلك عن دينه ؛ والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ؛ لايخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

وعن أبى سعيد الخدرى قال: «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف ، فقلت : يارسول الله ما أشدها عليك ! قال إنا كذلك يضعَّف لنا البلاء ، ويضعف لنا الأجر ، قلت : يارسول الله : أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ، قلت: ثم من ؟ قال : ثم الصالحون أنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحوبها (يمزقها) وأنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » .

ونحو الآية قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » .

(فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أى وليظهرنّ الله الصادقين منهم فى إيمانهم من الكاذبين بما يشبه الامتحان والاختبار ، وليجازينّ كلا بما يستحق .

وخلاصة ماسلف : أيها الناس لاتظنوا أنى خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شئونه ، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل واختباركم من آن إلى آخر بإنزال النوازل والمصايب فى الأنفس والأموال والثمرات ، والتخلى عن بعض الشهوات ، وفعل التكاليف من الزكاة والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشقاء ، شئتم أو أبيتم .

و بمقدار ماتصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفى الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان ملىء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسل .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) أى أيظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم ولا نستطيع أن نجرى العدل فيهم وما قضت به سنتنا فى الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبى معيط وحنظلة بن أبى سفيان والعاص ابن وائل .

(ساء مايحكمون) أى بئس حكما يحكمونه هذا الحكم ، وكيف يدور ذلك بخلدهم و إنا لم نخلق الخلق سدى ؛ بل ربيناهم وهذبناهم بضروب من التهذيب والعلم ؛ لعلهم يلمحون فى هذا العالم نور جمالى وجلالى .

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

شرح المفردات

يرجو : أى يطمع ، لقاء الله : أى نيل ثوابه وجزائه ، أجل الله: الوقت المضروب للقائه ، جاهد أى بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العبد لايترك فى الدنيا سدى وأن من ترك ما كلف به عذب — أردف ذلك ببيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لايضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله تعالى فهو غنى عن الناس جميعا ؛ ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة .

الإيضاح

(من كان يرجو لقاء الله فإن أجل لآت وهو السميع العليم) أى من كان يطمع فى ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ماينفعه وعمل مايوصله إلى مرضاته ويجتنب مايبعد من سخطه ، فإن أجل الله الذى أجله لبعث خلقه للجزاء لآت لامحالة ، والله هو السميع لأقوال عباده ؛ العليم بعقائدهم وأعمالهم ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، وفى هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجوّ والمَخُوف وعدا ووعيدا .

ثم بين سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس لنفع يعود إليه ، بل لفائدة المكلف فقال :

(ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين) أى ومن بذل جهده فى جهاد عدو أو حرب نفس فإنما يجاهد لنفع نفسه ، لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده ، وهربا من عقابه ، وليس بالله إلى فعله حاجة ، فهو غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل مايشاء .

ونحو الآية : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » .

ثم بين بالتفصيل جزاء المطيع فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن

الذى كانوا يعملون) أى والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلائهم فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم وعملوا صالح الأعمال ، فأدوا فرائضه وقاموا بها حق القيام، فواسوا البائس الملهوف ، وأغاثوا المظلوم ، وقدّموا لوطنهم ماهو شديد الحاجة إليه ، فرأبوا صدعه ، وسدّوا ثغره، وكانوا للمؤمنين سندا ومعينا، حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضا — لنكفرن عنهم سيئاتهم التى فرطت منهم فى شركهم أو صدرت منهم لماما فى إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها ولنثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون ، فنقبل القليل من الحسنات ، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ونجزى على السيئة بمثلها ؛ أو نعفو عنها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضاعف الحسنات — أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ، لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الإحسان والطاعة . فالإحسان إلى الوالد بالإنفاق ، وإلى الوالدة بالإشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لايطيعهما فى ذلك ؛ ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الأنبياء والأولياء ويؤتيه من الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ماأوتى هؤلاء .

روى الترمذى «أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه حَمْنَة بنت أبى سفيان لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارا بأمه ، قالت له : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتعيَّر بذلك أبد الدهر يقال : ياقاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى ؛ فكلى إن شئت وإن شئت فلا تأكلى ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هـذه الآية ، آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ وعدم طاعتهما فى الشرك » .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما ، والإحسان إليهما ، كما قال فى آية أخرى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » .

(وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى وإن حرصاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك ، وجاء فى الحديث الصحيح « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ومعنى قوله : (ما ليس لك به علم) أنه لاعلم لك بإلهيته ، وإذا كان لايجوز أن يتّبع فيما لا يعلم صحته فأحْرِ به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

(إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى مرجعكم جميعا إلىّ يوم القيامة ،

من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ، ومن عقّ ، ثم أجازيكم على أعمالكم ، المحسن بإحسانه ، والمسىء بما هو أهله .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى والذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وعملوا مايصلح نفوسهم ، ويزكى أرواحهم ويطهرها ، لندخلنهم فى زمرة الصالحين ، ونجعلهم فى عدادهم ، فندخلهم الجنة معهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) .

المعنى الجملى

الناس فى الدين أقسام ثلاثة : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر مجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ، ويبطن الكفر فى فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله : (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، ثم أردف ذلك بذكر القسم الثالث بقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أى ومن الناس فريق يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة ، فارتد عن إيمانه ، ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ماله من دافع ، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا .

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله . أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : « لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثالثة ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

وخلاصة ذلك : إن من الناس من يدّعون الإيمان بألسنتهم ، فإذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم ، فارتدوا عن الإسلام ، ورجعوا إلى الكفر الذى كان متغلغلا فى حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » .

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولن هؤلاء المنافقون : إنا كنا معكم إخوانا فى الدين ننصركم على أعدائكم ، وهم كاذبون فيما يدعون .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ

اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » .

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما فى صدورهم ، لايخفى عليه شىء من أمرهم فقال : (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟) أى أوليس الله أعلم بما فى قلوب المنافقين وما تكنه صدورهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ، فكيف يخادعون من لاتخفى عليه خافية ولايستتر عنه سر ؟ .

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هى ابتلاء واختبار من الله ليستبين صادق الإيمان من المنافق الذى لايتجاوز الإيمان طرف لسانه ولايعدوه إلى قلبه فقال :

(وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أى وليختبرن الله عباده بالسراء والضراء ، ليميز صادق الإيمان من المنافق ، من يطيع الله فى كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته ، ويعدها اختبارا له ، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوض الأمر فيها إلى ربه ، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر ، واشتد به الخطب ، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

شرح المفردات

المراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها ثِقْل : وهو الحِمْل الذى يثود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر و إلزامهم إياه بالأذى والوعيد ـ أردف ذلك بذكر دعوتهم إياهم إليه بالرفق واللين حينا آخر بنحو قولهم لهم : لاعليكم بذلك من بأس ، إننا نحتمل تبعات ذنوبكم ، ثم ردّ مقالتهم ببيان كذبهم ، فإن أحدا لايحمل وزر أحد يوم القيامة ، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم ، ويكون لهم العذاب على كلا المُجْرمين .

روى عن مجاهد : أن الآية نزلت فى كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لانبْعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) أى وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى : ارجعوا إلى ديننا الذى كنتم عليه واسلكوا طريقنا ، و إن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهى فى رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى .

فردّ الله عليهم كذبهم بقوله :

(وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء) أى إنهم لايحملون ذنوبهم يوم القيامة ، فإن أحدا لايحمل وزر أحد كما قال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » وقال « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ » .

ثم أكد ماسبق وقرره بقوله :

(إنهم لكاذبون) فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا ، قال صاحب الكشاف : وترى المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم : افعل هذا و إثمه فى عنقى ، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلهم اهـ .

و بعد أن بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم ، بين مايستتبعه ذلك القول من المضرة لأنفسهم فقال :

(وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) أى وليحملن الدعاة إلى الكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخرى بما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما جاء فى الآية الأخرى « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقُص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » .

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال :

(وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه فى الدنيا بوعد من أضلوهم بالأباطيل ، وقولهم لهم : (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) .

قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) .

الإيضاح

بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار ، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فتنوا ، أعقبه بتفصيل من فتنوا من الأنبياء : كنوح و إبراهيم وهود ولوط وشعيب تسلية له صلى الله عليه وسلم ، فقد ابتلوا بما أصابهم من المكاره ، وصبروا عليها ، فليكن ذلك قدوة للمؤمنين .

وقد بدأ بذكر أبى الأنبياء وهو نوح عليه السلام فذكر أنه مكث فى قومه ألف سنة يدعوهم إلى الله ليل نهار سرا وجهرا ، وما زادهم ذلك إلا فرارا من الحق و إعراضا عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، فأنزل الله عليهم طوفان الماء ، فأهلكهم وهم مستمرون فى الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات ، ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة ، فأنجى الله نوحا ومن معه ممن ركب فى السفينة من أتباعه ، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمدا طويلا مدة بقائها على جبل الجودى ، ينظر إليها الناس ، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان ، كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » وقد تقدم تفصيل هذا فى سورة هود .

وجاء النظم هكذا : إلا خمسين عاما ، ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين ، لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى فقد يطلق على مايقرب منه إلى أن ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض ، وجىء بالمميز أولا بالسنة ، ثم بالعام دفعاً للتكرار ، ولأن العرب تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجدب بالسنة ، ونوح لما استراح بقى فى زمن حسن .

العبرة من هذا القصص

لايحزنك أيها الرسول ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فإنى و إن أمليت لهم وأطلت إملاءهم ، فإن مصيرهم إلى البوار ، ومصيرك ومصير

أصحابك إلى العلو والنصر ، كفعلنا بقوم نوح : إذ أغرقناهم بالطوفان ، وأنجينا نوحا وأتباعه من راكبى السفينة وجعلناها عبرة للعالمين .

وفى ذلك إيماء إلى أن نوحا قد لبث هذا الأمد الطويل يدعو قومه ، ولم يؤمن إلا القليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر ، لقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) .

الإيضاح

(وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أى واذكر لقومك قصص إبراهيم حين كمل عقله وقدر على النظر والاستدلال ، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق ، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والإخلاص له فى السر والعلن ، واتقاء سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

ثم بين لهم فائدة ذلك فقال :

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى فذلك الذى آمركم به خير لكم مما أنتم فيه

إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم ، تميزون بها الخير من الشر ، وتعلمون ماينفعكم فى مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية .

ثم أرشدهم إلى فضل مايدعوهم إليه ، وفساد ماهم عليه بقوله :

(إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى ماتعبدون من دون الله إلا تماثيل هى مصنوعة بأيديكم ، وتكذبون حين تسمونها آلهة ، وتدّعون أنها تشفع لكم عند ربكم .

ثم زاد فى النعى عليهم والتهكم بهم ، و بيان أن ذلك لايجديهم نفعا فقال :

(إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا) أى إن أوثانكم التى تعبدونها لاتقدر أن ترزقكم شيئا من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه ، فكيف تعبدونها ؟

ثم ذكر لهم من ينبغى أن يعبد فقال :

(فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) أى فالتمسوا الرزق عند الله لاعند أوثانكم تدركوا ماتطلبون ، واعبدوه وحده ، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيد من فضله .

و بعد أن ذكر أنه هو الرازق فى الدنيا والمنعم على عباده ، بين أن المرجع إليه فى الآخرة ؛ فهو الذى يطلب رضاه ، والتقرب إليه ، والزلفى عنده ، فقال :

(إليه ترجعون) أى واستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر له ، فإنكم إليه ترجعون ؛ فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره ، وأنتم عباده وخلقه ؛ وفى نعمه تتقلبون ، ومن رزقه تأكلون .

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق ؛ حذّرهم من تركه ، وهددهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل فقال :

(و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى و إن تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين ، و إن تكذبونى فيما أخبرتكم به فلا تضرونى بتكذيبكم ، فقد كذب أمم

قبلكم رسلهم : كقوم إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، فجرى الأمر على ما سنه الله فى الخلق من نجاة المصدقين للرسل ، وهلاك العاصين لهم .

(وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وما ضر ذلك الرسل شيئا ، بل هم قد ضروا أنفسهم ، فما على الرسول إلا التبليغ الذى لا يبقى معه شك ، وماعليه أن يصدقه قومه ، وقد خرجت من عهدة التبليغ ، ولا علىّ بعد ذلك أصدقتم ، أم كذبتم ؟ .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

شرح المفردات

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقلبون : أى تردون بعد موتكم ، بمعجزين : أى جاعلين الله عاجزا ، من ولىّ : أى قريب ، ولا نصير : أى معين .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ثم الرسالة بقوله : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور ، وقد قلنا فيما سلف : إن هذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها من بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث .

الإيضاح

(أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة ، وتصرفهم فى الحياة إلى حين ثم موتهم بعد ذلك ، والذى بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه كما قال فى آية أخرى : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وخلاصة هذا : أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهى أهون عليه ؟

وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد فى الأنفس ، أرشد إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير) أى سيروا فى الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة . ثوابتها وسياراتها ، والأرض وما فيها من جبال ومهاد ، وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وأنهار وبحار ، فكل ذلك شاهد على حدوثها فى أنفسها وعلى وجود صانعها الذى يقول للشىء كن فيكون .

أو ليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شىء ؟ .

وشبيه بالآية قوله فى الآية الأخرى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال :

(يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أى يعذب من يشاء منكم ومن غيركم

فى الدنيا والآخرة بعدله فى حكمه على حسب سننه فى خلقه ، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته ، فهو الحاكم المتصرف الذى يفعل مايشاء ويحكم بما يريد ، لامعقب لحكمه ؛ ولايسأل عما يفعل وهم يسألون .

(وإليه تقلبون) أى وإليه تردون بعد موتكم ؛ والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات ؛ فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم ؛ وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم .

(وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) أى إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه ؛ بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شىء فقير إليه ، فلو صعد إلى السماكين ، وهبط إلى موضع السموك فى الماء ماخرج من قبضته وما استطاع الهرب منه .

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعا لايفلتون منه ، ذكر أنه لايستطيع أحد نصرهم فقال :

(وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) أى وما كان لكم أيها الناس ولى يلى أموركم ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم إن قدّر لكم .

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال :

(والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم) أى والذين كفروا بالدلائل التى نصبها سبحانه فى الكون دالة على توحيده ، والدلائل التى أنزلها على رسله دالة على ذلك ، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة ، أولئك لا أمل لهم فى رحمته ، لأنهم لم يخافوا عقابه ولم يرجوا ثوابه ، ولهم عذاب مؤلم موجع فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية و إرسال الرسل والحشر والجزاء؛ أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ، ولم يجدوا للدفاع سبيلا ، حينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره ، فقالوا لقومهم : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، فأنجاه الله من كيدهم ، وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى لومهم بعد أن أخرج من النار ، وقال : إن يمسككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل و برهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ، ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب ، وتستبين الأمور للبيب الأريب ، ويكفر بعضكم بعضا ، فيقول العابد : ماهذا معبودى ، ويقول المعبود : ماهؤلاء بعبدتى ، ويلعن بعضكم بعضا ؛ فيقول هذا لذاك : أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه ، وأنّى لهما ذلك ، وهما مجتمعان فى النار؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها .

الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار) أى فلم يكن جوابهم إذ قال لهم : اعبدوا الله واتقوه . إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو أحرقوه بالنار ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله منها ، ولم يسلطها عليه ، بل جعلها بردا وسلاما .

ثم ذكر مافى هذا من العبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار ، وقد ألقى فيها وهى تستعر وتصييرها بردا وسلاما عليه ـ لأدلة وحججا لقوم يؤمنون بالله إذا عاينوا ورأوا مثل هذه الحجة .

ثم ذكر ماقاله إبراهيم لهم بعد إنجائه من النار :

(وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى وقال لهم مؤنبا وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اجتمعتم على عبادتها فى الدنيا للصداقة والألفة التى بين بعضكم و بعض ، فأنتم تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم ، لالقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها .

وقصارى ذلك : إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم إلى عبادتها ، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها ، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم ، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئا ، فيفعله مودة له .

ثم ذكر أن حالهم فى الآخرة ستكون على نقيض هذا فقال :

(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ثم تنعكس الحال يوم القيامة ، فتنقلب الصداقة والمودة بغضا

وشنآنا وتتجاحدون ما كان بينكم ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع كما قال : «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » ثم مرجعكم إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) .

شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم على ماقاله النسابون ـ مهاجر إلى ربى : أى إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب : حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصالح لغة : هو الباقى على ماينبغى ، يقال : طعام بَعْدُ صالح أى هو باق على حال حسنة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لايفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون ـ أردف هذا ببيان أنه لم يصدّق بما رأى إلا لوط عليه السلام ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام فراراً بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدّد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ؛ وآتاه الذكر الحسن إلى يوم

القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى .

الإيضاح

(فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) أى فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به ، وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى ؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال : إن مَهْجَره كان من كُوثَى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لافائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقيّة بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يامحمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة (التى تدب فى الأرض ولاتسرع) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » .

ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال :

(إنه هو العزيز الحكيم) أى إن ربى هو العزيز الذى لايذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراده بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرّفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامنّ به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كِفاءَ إخلاصه له فقال :

(١) — (ووهبنا له إسحاق و يعقوب) أى ورزقناه من لدنّا إسحاق ولداً و يعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله: « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » وقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » وفى الصحيحين: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم » .

(٢) — (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فلم يوجد نبى بعده إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣) — (وآتيناه أجره فى الدنيا) فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدّل وحدته بكثرة الذرية ، و بدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولاجاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم : « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » وهذا لايقال إلا فى المجهول بين الناس؛ إلى أنه تعالى اتخذه خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) (و إنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى و إنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره — إنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين ، وآتاه الحسنى فى الحياتين .

قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة التى تنفر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق ، وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال .

المعنى الجملى

بعد أن قص علينا سبحانه قصص إبراهيم وما لاقاه من قومه من العتوّ والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا — أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتنّ قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفا لإبراهيم عليه السلام .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى واذكر قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه ، فأنكر عليهم سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم التى اختصوا بها ولم يسبقهم إليها أحد من قبلهم ، لفظاعتها ، ونفرة الطباع السليمة منها .

ثم فصل هذه الفاحشة وكرر الإنكار عليها فقال :

(١) (أئنكم لتأتون الرجال) إتيان الشهوة وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء.

(٢) (وتقطعون السبيل) أى وتقفون فى الطرقات تتعرضون للمارة تقتلونهم وتأخذون أموالهم .

(٣) (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى وتفعلون من الأفعال والأقوال فى أنديتكم ومجتمعاتكم ما لا يليق و يخجل منه أرباب الفطر السليمة ، والعقول الراجحة الحصيفة .

أخرج أحمد والترمذى والطبرانى والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (وتأتون فى ناديكم المنكر) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون (يرمون بالحصى) أبناء السبيل ، و يسخرون منهم» وفى رواية عن ابن عباس «هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العِلْك (اللبان) والسواك بين الناس وحل الإزار والسِّباب والفحش فى المزاح » .

ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم فقال :

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) أى فما كان جوابهم إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التى حرمها عليهم إلا قولهم : ائتنا بعذاب الله الذى تعدنا به إن كنت صادقا فيما تقول ، ومُنْجزا ما تعد ، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك .

وهذا الجواب صدر منهم فى أولى مواعظه ، فلما ألحف عليهم فى الإنكار والنهى قالوا « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » كما جاء فى سورة الأعراف وفى هذا إيماء إلى شديد كفرهم وعظيم عنادهم .

ولما يئس من هدى قومه واتباعهم نصحه طلب من الله نصره فقال :

(قال رب انصرنى على القوم المفسدين) أى قال رب انصرنى على هؤلاء الذين ابتدعوا الفواحش وجعلوها سنة فيمن بعدهم وأصروا عليها وجعلوا وعيدنا لهم تهكما وسخرية ، فأنزل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

شرح المفردات

القرية : هي سذوم ، الغابرين : الباقين ، وهو لفظ مشترك في الماضي وفي الباقي؛ يقال فيما غبر من الزمان : أي فيما مضى ، ويقال الفعل ماض ، وغابر : أي باق ، سيء بهم : أي جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، ضاق بهم ذرعا : أي عجز عن تدبير شئونهم ، يقال طال ذرعه وذراعه على الشيء إذا كان قادراً عليه ، ومثله رحب ذرعه ، وضده ضاق ذرعه ، لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصيره ، والرجز: العذاب الذي يقلق المتعذب أي يزعجه من قولهم : ارتجز فلان وارتجس : أي اضطرب .

المعنى الجملي

لما استنصر لوط عليه السلام ربه بقوله : (رب انصرني على القوم المفسدين) استجاب دعاءه و بعث لنصرته ملائكة، وأمرهم بإهلاك قومه، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه و بشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادي أهلها في الشر و إصرارهم على الكفر والمعاصي ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

فى القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ننزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين وآية بينة لقوم يعقلون .

الإيضاح

(ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ـ قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سذوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

(إن أهلها كانوا ظالمين) لأنفسهم بتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما قالت له الملائكة ذلك :

(قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) أى قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله : إن فى القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ما سلف إيضاحا وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم .

(لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين فى العذاب لمالأتها إياهم على الكفر والبغى وفعل الخبائث .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجىء الرسل ضيوفا لديه فقال :

(ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه

خاف عليهم من قومه وحصلت له مساءة وغم بسببهم مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه وتدبير الحيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هـذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هَوِّنْ على نفسك ولا تخف علينا ولا تحزن بما تفعله بقومك ، فإنهم قد بلغوا فى الخبث مبلغا لا مطمع فى رجوعهم عنه مهما نصحت وألحفت فى الإرشاد .

ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا:

(إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجو أتباعك معك ، فلن يصيبكم ما يصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من الهالكين ، لمظاهرتها إياهم والميل إلى شد أزرهم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلهم على ضيوفه فيقصدونهم بالسوء ، فصارت شريكة فى الجُرْم .

و بعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

(إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) أى منزلون عليها عذابا من لدنا يرتجزون له (يضطربون) وتنخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفئدتهم وصار هِجِّيراهم وديدنهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة (البحر الميت) .

و بعدئذ بين أن ما حل بهم عبرة لمن اعتبر وادّكر فقال :

(ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبرة بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلا للآخرين .

ونحو الآية قوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»

وتقدم أن قلنا آنفاً عند ذكر هـــذه القصة ما أثبته الكشف الحديث فى هذا الموضع .

قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

شرح المفردات

مدين : أبو القبيلة ، وارجوا اليوم الآخر : أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من الأهوال ، ولا تعثوا: أى ولا تفسدوا ، والرجفة: الزلزلة الشديدة ، جاثمين: أى مقيمين؛ من جثم الطائر : إذا قعد ولصق بالأرض ، والمراد أنهم ماتوا .

الإيضاح

(وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوه فى الأرض مفسدين) أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحدا وأخلصوا له العبادة ، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه ، ولا تفسدوا فى الأرض ولا تبغوا على أهلها فتنقصوا المكيال والميزان وتقطعوا الطريق على الناس بل توبوا إلى ربكم وأنيبوا إليه .

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال :

(فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فكذبوه فيما جاءهم به من عند ربهم فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب واضطربت الأفئدة ، فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراك بهم .

وقد تقدمت هذه القصة مبسوطة فى السور : الأعراف . هود . الشعراء .

قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى قريبة من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحِجْر قريبا من وادى القرى مع ما كانوا عليه من العتوّ والتكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنهما معرفة تامة وتمر عليها كثيرا وترى ما حل بها .

وما سبب ما جرى عليها إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ، وصدهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمكنين من النظر والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

شرح المفردات

يقال سبق فلان طالبه : أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أىّ إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل

على صدق رسالته، فاستكبروا فى الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به ، وما كانوا فائتين الله وهاربين من عقابه ، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر .

عاقبة الأمم المكذبة لرسلها

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

شرح المفردات

الحاصب : الريح العاصفة فيها حصباء : أى حجارة صغيرة .

الإيضاح

(فكلا أخذنا بذنبه) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب :

(١) (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصباء فألقتها عليهم .

(٢) (ومنهم من أخذته الصيحة) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم يؤمنوا ، بل استمروا فى طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه ، فجاءتهم صيحة أخمدت منهم الأصوات والحركات .

(٣) (ومنهم من خسفنا به الأرض) كقارون الذى طغى وبغى ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحا، وتاه بنفسه عجبا، فخسف الله به وبداره الأرض.

(٤) (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان ، وفرعون وهامان وجنودهما أغرقوا فى صبيحة يوم واحد .

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما لهم فقال :

(وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ولم يكن الله ليهلكهم بغير جرم اجترموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لا يوافق منهج الحكمة ، فلا يصدر عن الحكيم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ومعصيتهم من أنعم عليهم .

مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

المعنى الجملى

بعد أن أسلف ـ سبحانه ـ أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولا ينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده ـ أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لا يريحها إذا هى أوت ، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هى ثوت ، ثم زاد الإنكار توكيدا فذكر أن مايدعونه ليس بشىء فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة من ليس بشىء ، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لا يدرك مغزاها إلا ذوو الألباب ، الذين يفهمون خبىء الكلام وظاهره ، وسره

وعلانيته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون ، ويدركها المستبصرون وهى ما أرشد إليها بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

و بعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك المشركون ، سلى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ، و إرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير أو شر .

الإيضاح

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) أى مثل الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها لدى الشدائد ؛ فى قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ، اتخذت لنفسها بيتا يكنها من حر و برد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل أمر الله بهم وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ولم يدفعوا عنهم ما أحل بهم بعبادتهم إياهم .

وخلاصة ذلك — إن بيت العنكبوت لا يكنّ ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ، ودفع المضار ، وما عبده الكافرون لم يفدهم شيئا من ذلك ، فكيف بهم يصرون على عبادتهم .

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

(و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) أى لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء — يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا ؛ كما لا يجدى بيت العنكبوت عنها شيئا — ما فعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير جدًّا لا يستطيعون معه العلم بعواقب مايفعلون ؛ ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى .

و إجمال ماتقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحد الذى يعبد الله ؛ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرّ وجص أو نحته من صخر ؛ وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، فأضعف الأديان إذا سبرتها دينا فدينا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثبيتا فقال :

(إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء) أى إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لا تنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائه لها .

وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لا يسمى شيئا .

(وهو العزيز الحكيم) أى والله هو العزيز فى انتقامه ممن كفر به وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا ـ أيها المشركون به ـ عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فمهلك من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصلاح والاستقامة .

ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بَعُدَ من أفهامهم ، و إيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، وما يفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستتباعها لكثير من الفوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال «العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» .

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه ، ولا ناصر لمن خذله ، أقام الدليل على ذلك بقوله :

(خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى خلق السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولهوا ، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجاده ، وأمكن معرفة الخالق الذى أوجدها وعبادته كفاء نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسليا له بقوله :

(اتل ما أوحى إليك من الكتاب) أى أدم تلاوة الكتاب تقربا إلى الله بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد ، وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

(وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) أى وأد الصلاة على الوجه القيم مريدا بذلك وجه الله ؛ والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له ؛ فإنها إن كانت كذلك نهتك عن الفحشاء والمنكر ؛ لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم ، ففى أقوالها وأفعالها ما يومئ إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك

وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه ، وإخباتك له ، وإنابتك إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

(ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

(والله يعلم ماتصنعون) من خير أو شر وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير .

ولايخفى مافى ذلك من وعد ووعيد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلن « إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

تم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .